« هذه ثمار اعمالهم ايها السادة . ومن ثمارهم تعرفونهم . فلا يفتخروا بعد الآن بانهم حفظة « النظام المطلق » مع انهم مضعضعوه . ان النظام يقتضي قبل كل شيء « انكار الذات » اي ان يتنازل الانسان عن شيء من حقوقه في سبيل المصلحة العمومية اكراماً للذين يخدمون و ينفعون . فالرؤساء والحكام والاغنياء والكبراء يتفانون في الخدمة العمومية ونفع الامة ولذلك يجب على افراد الامة ان ينكروا ذواتهم قليلاً و يتركوا لهم شيئاً من حقوقهم في مقابلة متاعبهم ومسئوليتهم . ولذلك تكون المساواة المطلوبة بين هولاء وافراد الامة عبارة عن وهم وخيال . اما المساواة الممكنة الحقيقية ايها السادة فهي تكون في السماء لدى الله لا في الارض بين الناس »

وهنا فرغ الخطيب من خطابه وجلس وهو يمسح العرق عن جبينه . ويظهر ان الغيظ الذي كان في اثناء كلامه يجيش في صدور العمال والغلاة من انصارهم قد طفح حين سكوت الخطيب فهاجوا وماجوا وصرخوا صرخة واحدة قائلين « فليسقط الظالمون » وصاح احدهم « قلت ان المساواة وهم وخيال فالوهم معتقدك والخيال في دماغك اما المساواة فسنحققها او نموت » وصاح اخر « ان قولك وهم وخيال ينقض كل الاديان ولكن لا يهمكم دينكم ما دامت مصلحتكم مصونة » — فردَّ عليهم حينئذ فريق من رجال المال ورجال الدين وعلت الضوضاء واحتدم الجدال وتماسك فريق منهم بعضهم ببعض وتضاربوا فعمت الفتنة الحديقة كلها واضطرت الجنود الى المداخلة حفظاً للامن . ولكن الجنود لم تتمكن من ذلك الا بشق النفس لعظم الاضطراب . ثم انجلت الفتنة عن جريحين حُملا الى المستشفى بحالة النزع . واخرجت الجنود الناس من الحديقة وفرقتهم في المدن الثلاث لان التحمس كان شديداً

الفصل الثامن

الجلسة الثالثة

الدين ومشاكله

وفي اليوم التالي انتبه السكان على اصوات جلبة العمال واجتماعهم في الشوارع والاسواق افواجاً افواجاً لاعتصابهم وتركهم العمل بتاتاً في ذلك اليوم . فتفاقم الخطب وازداد الاضطراب .

لكن لما بلغ العمال ان شيخ اهل العلم سيخطب في تلك الليلة ردًّا على خصومهم خمدت قليلاً نار حدتهم . ولما امسى المساء غصت الحديقة بالناس حتى لم يبقَ فيها مكان لموضع قدم . وكانت جميع الابصار حائمةً على صفوف اهل العلم لتشاهد شيخهم الكبير الذي كان لا يخرج من خلوته في مدينة العلم ولا يحضر المجتمعات العموميـة ليبدي رأيه فيها الاَّ في اشد الاوقات . وبينما هم يتطاولون نحو صفوف العلم انفرد من هذه الصفوف شيخ مهيب جليل كامل الشيب رأسه وهو يناهز السبعين . فجلس على كرسي منفرد كان موضوعاً على دكة وابتدأ خطبته والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير . وكان حليم جالساً مع رفيقه في الزاوية التي تقدم ذكرها قريباً من شيخ العلماء والشيخ الرئيس وقد صار شديد الاهتمام بما عليه اهل هذه المدن من الاختلاف بعد ما سمعه في الليلتين السابقتين

اما شيخ العلماء فانه انشأ يقول

خطبة شيخ العلماء

ايها الاخوان

ـ قرأتُ اليوم في الجرائد خطبة اخينا المدافع عن الدين الحامل على العلم حملة منكرة فخيل لي وانا اقرأُها انني في مشهد صراع وان الخطيب مصارع يطلب اعدام خصمه لا اقناعه . فذكرت حينئذ مشهداً كهذا المشهد فيه فكاهة وعبرة معاً . فانني كنتُ اسمع مرة احد المتحمسين في الدين يدعو الى دينه . فكان يتكلم بصوت كالرعد القاصف ويخبط الهواء بيديه خبطاً متوالياً ويرفس الارض بقدميه رفساً شديداً وينادي ملء فيه : ان البشر لا يستغنون عن الدين . ان دينه خير الاديان كما ورد في كتابه . ثم اردف ذلك باقوال عن العلة والمعلول والفاعل والمفعول والواجب والممكن وغيرها . فلبثت في مكاني مبهوتاً وانا اقول : ان هذا الرجل يطلب ان يدلنا على طريق السماء ومع ذلك فانه يغطي وجهها بالغبار الذي تثيره حدته وبالسحب المتراكمة من اقواله الجافة الغامضة التي لا يفهم سامعوه لها معنى . والتفتُّ لارى حالة سامعيه فابصرتُ في زاوية امامي فتاةً جاثية على بلاط الارض ووجهها لاصق بالثرى وهي تصلي ولا تسمع شيئاً من كلام ذلك المتحمس . فثارت نفسي لهذا المشهد وقلت ان هذه الفتاة بلطفها وهدوئها وسكوتها تعرف طريق السماء وتؤثر في الارشاد اليها اكثر من ذلك الواعظ البليغ الفصيح

« وان سألتم لماذا يكون تأثير هذه الفتاة مع سكوتها اوقع في النفوس من تأثير ذلك الواعظ المتحمس مع كثرة كلامه . فاجيب : ذلك لان هذه الفتاة تتمسك باسمى مبادىء

الدين ولا تلتفت الى ما بقي . واسمى مبادىء الدين التسليم والاستسلام الى الخالق وترك الدنيا لطلب ما وراءها لا للاستيلاء عليها وعلى عقول سكانها . بماذا كبرت الاديان وشرفت وعظمت ؟ هل كان ذلك بالحروب والسيوف والمدافع ؟ كلاَّ وانما كان ذلك بدم الشهداء . اي بتسليم الانسان نفسه الى كبرياء المخلوق اعتماداً على عدل الخالق . وقد كان الخالق عادلاً فان ذلك المسيحي الذي كان يحتمل كل عذابات الموت بسكوتٍ وفرح وشكر لله لانه اختاره ووجده اهلاً لان يتعذب من اجله . وذلك العربي الذي كان في واقعة اليرموك يهجم طالباً الموت منادياً " يا محمد امتك امتك " — قد اسسا في العالم اديانًا عظمى وممالك كبرى . فكان انتصارهما عظيماً

« فدماء الشهداء ايها السادة وظلامات المظلومين هي التي نصرت الاديان وجعلت على هامة الدين اكليلاً من الجمال والسناء . فاحذروا ان ترفعوا هذا الاكليل عن هامة الدين . وانكم لترفعونه عنها وتضعونه على هامة قوم غيركم يوم يصير الشهداء في صفوف غير صفوفكم . فينتقل يومئذ صولجان العظمة والجمال منكم الى اولئك الشهداء الذين تعادونهم وتعذبونهم . اذاً لا تضطهدوا العلم والعلماء ولا تفتروا عليهم ولا تقاوموا العمال المساكين انتصاراً لاصحاب الاعمال فان هؤلاء العمال هم شهداء العصر الحاضر . وارجعوا الى الله في نفوسكم والى مبادئكم الاساسية التي منها درجتم فتنكشف لكم الحقيقة التي ننشدها معكم

« ولا تخشوا ان اقع في الخطاء الذي يقع فيه الناس عند طلبي التساهل والاعتدال منكم . فانني اعلم ان التساهل الديني ليس سوى فرع من التساهل العمومي الواجب بين جميع الناس في جميع المعاملات . اذ ماذا يفيدنا ان نطلب التساهل الديني فنحصل عليه ثم يبقى التعصب والتصلب في باقي الامور شديد البنيان راسخ الاركان . كلا . اننا نطلب التساهل المطلق . التساهل بكل فروعه . لان هذا التساهل العام هو وحده الضربة القاضية على الحيوانية والاثرة البشرية . فالذي يفتخر بانه متساهل في دينه لا يبغض غيره ولا يطلب ضرره بسبب مذهبه ثم تراه ظالمًا في معاملاته الخصوصية فسمه متعصباً لا متساهلاً . وهكذا يكون صاحب العمل الذي يظلم عامله متعصباً . والعالم الذي يتصلب برأيه ولا يحتمل رأي غيره متعصباً . وهلمَّ جرًا . فاطمئنوا فانكم لستم وحدكم مصدر التعصب لان للتعصب انواعًا متعددة

« ولكني اعتقد انه يحسن بخدمة الله ان يكونوا البادئين باقامة مملكة التساهل في الارض وقتل روح التعصب على انواعه . فساعدونا ايها السادة على محاربة الاثرة البشرية وحب

الذات واعادة الامن والنظام الى نصابه في البلاد

« وتوصلاً لذلك علينا ان نبحث معكم في مسألتين (الاولى) علاقة العمال باربابالاعمال (والثانية) علاقة العلم بالدين

« اما المسألة الاولى فقد قرأتُ اقوال الفريقين فيها . فرأيت الغلو في الجانبين . فلتكن وظيفتنا ايها السادة التوفيق بين المصلحتين لا نصرة احداهما على الاخرى

« وقد القيتُ الى حضرة الرئيس حين دخولي الى هذا المكان لائحة فيها عدة اقتراحات اظنها كافلة بهذا التوفيق

« اما المسألة الثانية فحلها اسهلُ من حل المسالة الاولى . فان العلم والدين اذا اختلفا في الطرق فانهما يتفقان في الغرض . ذلك لان غرض العلم والدين واحد وهو تحسين حالة الانسانية وترقية شؤون البشر . فما الموجب لجعل الواحد يناقض الثاني ويحاربه

« لا موجب لذلك سوى الاهواء والمصالح ايها السادة

« فلننبذ الاهواء والمصالح ولنتمسك بالمبادئ والمبادئ توفق بيننا وان اختلفنا في تفسير بعضها

« ولكن فاعلموا جيداً ايها السادة انه لا سبيل للوفاق بين الفريقين الاَّ بتساهل الاثنين . فعلى الدين قبل كل شيء ان يتذكر ان العالَم قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئاً من مبادئه وقواعده القديمة . وعلى العلم ايضاً ان يتذكر ان العالَم قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئاً من مبادئه وقواعده الماضية . — ذلك ان العدو الحقيقي للدين والعلم ايها السادة انما هو الاثرة والشراهة والرغبة في الانفكاك من كل قيد . او كما يقول بعضهم " اعطاء الفرد مداه لاشباع كل قواه " . وما نتيجة هذا الامر الاَّ استعلاء ذوي الفطر الدنيئة على ذوي الفطر السامية اي تغلب صغار النفوس على كبارها لان المواهب السامية والعواطف الكريمة المودعة في النفوس الكبيرة لا تعود نافعة لشيء ما دام الغرض من الحياة التمتع بمافيها من اللذات . وحينئذ يملك في الارض اصاغر سكان الارض اعني الشرهين والحمقى والوقحين والمعتدين والظالمين . وينزوي الاكابر الحقيقيون في زوايا الاهمال يندبون سقوط كل ما هو جميل وجليل . ولا عزاء لهم حتى ولا بحياة اخرى لان اولئك يضحكون منهم ويخبرونهم انها حياة وهمية

" نعم ايها السادة اننا مثلكم نبكي حزناً واسفاً كلما رأينا العلم يؤدي ببعضهم الى هذه النتائج المكروهة . ولكن رحماكم انصفوا ولا تلقوا التبعة في ذلك على العلم بل على الذين اخرجوه هذا المخرج . اي على النفوس التي استنتجت منه هذه النتيجة القبيحة . ان العلم

„ كندى السماء . ولا يبقى الندى نقيًا الاَّ اذا وُضع في اناءٍ نقي „ فالنفوس التي تُخرج العلم المقدّس ذلك المخرج ليست بنفوس نقيّة ولذلك يفسد العلم فيها . فقبل لومكم العلم لوموا الفطرة الطبيعية الدنيئة

„ثم هل تظنون ان العلم وحده يُنتج نتائج كهذه النتائج . كلا . فان تعليمكم الدين بالطريقة التي تعلمونه بها يُنتج مثلها ايضًا . فانكم تعلمون مبادىء وقواعد قديمة لم تعد العقول تقبلها في عصر كهذا العصر . وتطلبون تدبير الحاضر بالماضي . وتقولون ان الناس لا يمكنهم فهم الكتب الا بواسطتكم ولذلك تفسرونها وتضعون رايكم في هذا التفسير في موضع الحقيقة الثابتة التي لا يجوز مسّها بدل ان تتركوا الناس يفهمونها كما تسوقهم فطرتهم . فكم من نفس ساذجة كريمة تفهم مع سذاجتها تلك الكتب بالروح اكثر مما تفهمونها انتم . بل هي تصنع افضل من هذا فانها لا تفهمها فقط بل تعمل بها ايضًا وهذا فضل لها عظيم عليكم يا من تكتفون بالقول دون الفعل . فلماذا تجعلون انفسكم بين الله والناس في منزلة الوسيط والمدافع عن الدين اي عن الضمير البشري . من اقامكم وسطاء ومدافعين عن هذا الضمير . دعوا البشر يعيشون بملء حريتهم الروحية . فان كتبهم الدينية بين ايديهم . وضمائرهم اذا لم تُفسدوها بالجدل والمماحكة والاهواء فانها لا تقراء فيها الا الحقائق الازلية ومبادىء الاخاء البشري . ولا تقولوا نحن نرشدهم . فانكم بشر مثلهم . اي فيكم جميع اهواء البشر الصالحة والفاسدة . وهذا الارشاد لا يقبله البشر الا من الملائكة . ويوم تصيرون ملائكة مجردين من كل ضروب الشقاء البشري فاعلموا اننا نحن نسعى اليكم من غير ان تأتوا الينا ونطلب مساعدتكم . فدعونا ولا تقفوا بيننا وبين الله لتجبرونا على ان نفهم حياتنا وكتبنا والهنا ومصالحنا كما تريدون انتم : فان ذلك الضغط يجرنا الى الكفر بكل شيءٍ

„ ثم هل انتم تكتفون بذلك ؟ كلا : فانكم لا تنفكون عن محاربة بعضكم بعضًا . فهذا المذهب يكفّر ذاك وذاك هذا الى ما شاء الله . والاقبح من ذلك الحرب بين الاديان اي بين دين ودين لا بين مذهب ومذهب فقط . فان الذين مصلحتهم قائمة بتكدير الاخاء بين البشر واثارة التعصب في نفوس اهل السذاجة (ولولا ذلك لم يكن ثمّ موجب لوجودهم لا معنى له) لا ينفكون عن النداء ان دين اولئك باطل لاحتوائه على كذا وكذا فيجيبهم غلاة „هذا الدين بل دينكم الباطل لاحتوائه على كذا وكذا . وفي اثناء ذلك يكون رجل ثالث واقفًا بعيدًا عن الفريقين يسمعهما . فلما يرى الفريقين في سكرة من الجنون والحماقة الى هذا الحدّ . لما يرى انه لا غرض لهما من هذا الطعن غير التدجيل والشعوذة „ لملء الخزانة واشباع

الحزانة ،، كما قال الزمخشري في بعضهم على افتراض ان هذا التدجيل يجوز على عقول اهل السذاجة ـ فانه حينئذ يهب من مكمنه و يقول للفريقين : ان رمتما الحق فكلا كما في ضلال . وليس هنالك دين صحيح غير ديني . فيسالانه : وما هو دينك ؟ فيجيبهما ،، ديني ان انعل ما اريد كما أريد وقتما اريد . وما بقي فاوهام وخزعبلات حاكتها التصورات والخيالات وهدمتها كل الفلسفات ،، ـ وهكذا يكون تكفير الناس بعضهم بعضاً في عصر كهذا العصر مؤدياً على خط مستقيم الى هدم جميع الاديان على السواء . وليست التبعة في ذلك واقعة فقط على الغلاة من اهل العلم والفلسفة بل هي واقعة ايضاً على الغلاة من اهل الاديان في اي دين كان .

،، من اجل هذا طلبنا منكم التساهل والاعتدال وترك الصراع والنزاع . ان مبادئكم ـ كتلك الفتاة التي كانت جاثية بخشوع على البلاط تصلي في اثناء هياج الخطيب المصارع ـ لا تؤثر تأثيراً حقيقياً الا بالتسليم لرحمة الله والهدوء والاقناع . فكونوا هادئين ومخلصين مقنعين ومقتنعين . . . واعلموا ان الوفاق في بلادنا بين عناصرنا لا يمكن الا بمراعاة الوسط الجديد الذي صرنا فيه لان الوسط الماضي قد تغير علمياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً . وهذا الوسط لا بدّ ان تجتمع فيه جميع المذاهب والآراء والمبادىء والافكار . وبناءً على ذلك لا سبيل لدوام الوفاق بين الجميع الا باطلاق الحرية المطلقة لجميع تلك المذاهب والآراء والمبادىء والافكار من اي نوع كانت . وهي من تلقاء نفسها متى تُركت لذاتها ولم يكن هنالك شهوة دنيئة تحرّكها تتفق وتتجه الى غرض واحد وهو الخير اي محاربة الرذيلة والشناعة والفظاعة والشرور في الارض من اي مصدر وردت وباي صورة كانت . و بعد حين لا يبقى منها الا الافضل ،، لان الافضل ينسخ بما هو افضل منه ،، كما قال ابن رشيد . ونحن نقبل هذا الافضل في اي جانب كان ومن اي مصدر كان .

ولا نقولوا ان اقوالي هذه تهدم آمالكم القديمة واحلامكم الجميلة . كلا . فانه لا حلم ولا أمل اجمل من رفع الجنس البشري وانهاض الشعوب . فاصرفوا هممكم لا الى تحريك التعصب في صدور الشعوب ولا الى طلب المستحيل بل الى خدمة الشعب خدمة حقيقية . ويتم ذلك بانارة عقول ابنائه ـ دون سيطرة عليها ـ ومساعدتهم في حياتهم وتعزيتهم في مصائبهم وذلك بالفعل لا بالقول فقط . فان القول لم يعد يؤثر شيئاً والقدوة خير المعلّمين . فاحملوا اذا لواء الفقر والرفق والمحبة والايثار والزهد وامشوا في طليعة جيش الشعب . فانكم لهذا وُجدتم . اما اذا رمتم حمل لواء البذخ في صفوف الحكام والكبراء واصحاب الاعمال

فيكون حينئذ مثلكم مثل ملوك يخلعون انفسهم ويخونون وظيفتهم وينقضون مبادئهم ،،

ولما سكت الشيخ الخطيب علا من صفوف العمال شيء من الجلبة لعدم رضائهم عن هذه الخطبة كل الرضى . واما صفوف اهل المال واهل العلم فانهم صاروا اقل مقاومة مما كانوا . على ان الجميع باتوا ينتظرون الاقتراحات التي اشار اليها الخطيب في اثناء كلامه ليروا منها هل الاتفاق ممكن ام لا . فتناول الرئيس حينئذٍ ورقة ونشرها ثم قال يخاطب الجميع ايها الابناء

ـ اليكم نص الاقتراحات التي يقترحها من احترامه واجب علينا جميعاً وذلك حسماً للنزاع والخلاف . وانني ارجو ان تكون وسيلة لاتفاقكم

(المادة الاولى) تزاد رواتب العمال والمستخدمين والموظفين ٥٠ في المائة . ولكن هذه آخر زيادة الا للذين تجب مكافأتهم في المستقبل حين الاقتضاء

(المادة الثانية) لا يمكن استخدام احد في اي عمل كان باقل من مائة فرنك في الشهر

(المادة الثالثة) ساعات العمل في اليوم ٨ فقط ٤ قبل الظهر و٤ بعده

(المادة الرابعة) اما الاولاد والنساء فانهم يعملون ٦ ساعات فقط لان كثرة العمل تهدم بنية الولد وتمنع النساء من افتقاد منازلهن

(المادة الخامسة) ينشأ صندوق يدعى ،، صندوق تقاعد العمال ،، وكلما شاخ عامل او عجز عن العمل لمرض فانه يتناول رزقه الضروري من هذا الصندوق طول عمره

(المادة السادسة) لا يجوز لاصحاب الاعمال ان يستغنوا عن احد من المستخدمين والعمال بحجة قلة العمل او ان يخفضوا اجور بعضهم لاي سبب كان . وعليهم ان يعتبروا جمعيات العملة نائبة عن هؤلاء في كل مخابراتهم

(المادة السابعة) توضع ضريبة على الايراد مقدارها ١٠ في المائة . فمن كان ايراده الف جنيه في العام يدفع ١٠٠ جنيه ومن كان ايراده ١٠ الاف جنيه يدفع ١٠٠٠ جنيه وهلم جرا . وذلك لتخفيف الرسوم والضرائب عن عنق الشعب . ولكن كل من كان ايراده اقل من ٢٠٠ جنيه فان ضريبته تكون ٢ في المائة فقط ومن كان ايراده اقل من ١٠٠ جنيه ١ في المائة . ومن كان ايراده ٥٠ جنيهاً فلا يدفع ضريبة ولا رسماً على الاطلاق

(المادة الثامنة) تتعهد الحكومة بأن تنشىء في البلاد من اموال الضريبة على الايراد التي تقدم ذكرها مزارع واسعة ومصانع عديدة تشغل بها كل من كان بلا عمل وبان تبني في كل مدينة من المدن الثلاث مستشفيين للمرضى وملجأين للشيوخ والعجزة

ودارين للايتام ودارًا للقطاء

(المادة التاسعة) تتعهد الحكومة ايضًا بان تنشىء للشعب مدارس مجانية يكون فيها التعليم اجباريًا لكل ابناء الامة . ولا يُدرس في هذه المدارس صغراها وكبراها من الاصول الدينية غير المبادىء العمومية التي تقبلها جميع المذاهب »

تلك كانت اقتراحات شيخ العلماء . وقد تغامز اهل المال كثيرًا بينما كان الرئيس يتلوها . ويظهر انه لم يسؤهم منها كثيرًا غير وضع الضريبة على الايراد لانها من امهات المسائل . اما العمال واهل العلم فصاروا يتناجون في السر ويتساءلون عن النتيجة . وفي هذا الحين قال الشيخ الرئيس مخاطبًا الجمهور

ـ لا ارى مانعًا من فض هذا الاجتماع الآن للبحث في هذه الاقتراحات غدًا لانها تقتضي الامعان والمشاورة

الفصل التاسع

❋ وضع الجنون موضع العقل ❋

وخرج الجمع من الحديقة وهم يتباحثون في هذه الاقتراحات . وكان حليم في جملتهم يباحث فيها رفيقه صادقًا ويعرب له عن سروره بنيل الشعب ما لم ينله سواه في باقي البلاد

وقد انقضت تلك الليلة بهدوء وسكينة . لكن لم يطلع الصباح حتى علت ضوضاء شديدة في المدينة . فان السكان انتبهوا على اصوات باعة الجرائد « خيانة خيانة » ففتحوا نوافذهم فوجدوا على الجدران في كل مكان اعلانات حمراء طويلة عنوانها باحرف غليظة

« الشعب المهذَّب يخون الشعب المسكين »

وهذا نصّ ذلك الاعلان الغريب

» ايها الاخوة العمال والمستخدَمون

» لقد خانوكم وضحكوا عليكم

» فلا تصدّقوهم

» ولا ترضوا باقتراحاتهم